حول جدل فى الجامعة

للأستاذ محمد أحمد خلف الله

تحت هذا العنوان كتب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الفتاح بدوى المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر يقول « ولكن الذى لنا وللعلماء خاصة هو القيام على الحقائق العلمية وعلى الحقائق الدينية ننفى عنهما الخبث وندافع عنهما كل من يحاول عليهما العدوان . » وأنه مادام يملك المقال الذى كتبته فى الرسالة . عدد ٧٤٣ فإنه يملك باباً وسيعاً من المناقشة والحساب فى مسائل علمية ودينية لها أكبر الخطر ويترتب عليها أعظم النتائج العلمية والأدبية والاجتماعية والقانونية إلى أن يحصل على أشياء أخرى غير المقال .

ومناقشة الأستاذ لهذا المقال قسمان مسائل وشتائم فلنبدأ الحديث عن المسائل .

١ — قلت من المعروف دينيا ألا نستنتج من نص قرآنى أمراً لم يقصد إليه القرآن . فقال الشيخ هذه الدعوى تهجم عارم على العلم وعلى القرآن جميعاً وبين ذلك بقوله أليس القرآن الكريم كلاماً له الدلالات المنطقية الثلاث المطابقية والتضمنية والالتزامية التى لكل كلام سواء فى ذلك كل أنواع الكلام .

ولا نفهم كيف يكون لكل كلام دلالات ثلاث تقصد منه مع أن عباره المتن — الذى يعرف بعلم البيان — « والايراد المذكور لا يتأتى بالوضعية أى بالدلالة المطابقية ويتأتى بالعقلية أى التضمنية والالتزامية . »

ومعنى ذلك كما يلحظ القارىء أن الإيراد البيانى بالتجوز والاستعارة والكناية ... الخ لا يكون إلا ببعض هذه الدلالات . ولذا لا ندرى كيف حكم الشيخ بالدلالات الثلاث لكل كلام .

ثم أين مايقوله البيانيون ورجال البلاغة من حال التكلم وحال المخاطب والقرائن العقلية وأين السياق والمقام حيث يقولون لكل مقام مقال أين كل هذا يا صاحب الفضيلة أليس كل هذا يدل على أنه لا يصح أن نستنتج من أى نص أمرا لم يقصد إليه القائل .

ثم هذه الآية نفسها التى أوردها الشيخ وهى أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة تدل الدلالة القوية على تأصيل القاعدة التى نقول بها إن لم تكن مؤصلة وإلا فليدلنى الشيخ وقد ماذا يكون موقفه من العلم حين يثبت بقرائن مادية يقول بها علماء الجولوجيا من أن هذا البيت ليس أول بيت وضع للناس من الناحية الزمنية أيصر على موقفه أم يرجع إلى قصد القرآن ويفهم ما فهمه بعض المفسرين من أن الأولية هنا ليست أولية الزمان .

ولو قرأ الشيخ المقال الافتتاحى فى عدد الرسالة الذى نشر فيه مقاله وعنوانه (القرآن والنظريات العلمية) لوجد الضرورة القصوى الداعية إلى تأصيل هذا الأصل فى فهم نصوص القرآن لو كان غير مؤصل فى فهم عبارة كل متكلم . لكنه أصل لا نعرف أحداً يستطيع المشاحة فيه ؟ ولكن ؟

٢ — وقلت إن القصص القرآنى من المتشابه فقال الشيخ فلسنا نعرف أحداً من الأصوليين ولا أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآنى متشابهاً .. كما يقول فى موطن آخر فالأستاذ الإمام لم يقل إن القصص من المتشابه ولم يقل بذلك مسلم قبله أو بعده ...

ونبدأ مع الشيخ بالعموم الجرىء فى قوله إنه لا يعرف أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآنى متشابهاً ونضع بين يديه ما فى التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لأبى حيان جـ ٢ ص ٣٨١ طبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ ونصه [وقال مقاتل المحكمات خمسمائة آية ... الخ والمتشابه القصص والأمثال . وقال يحيى بن يعمر المحكم الفرائض والوعد والوعيد والمتشابه القصص والأمثال .]

ثم نضع قول الطبرى فى جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ٣ ص ١٠٧ الطبعة الميمنية ونصه [والمتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير فى السورة فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعانى وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى .]

ثم نضع قول الطبرى فى كتابه جمع البيان فى تفسير القرآن جـ ١ طبع صيدا ص ٩ ـ ٤ ونصه [والمتشابه ما تكرر ألفاظه كقصة موسى وغير ذلك عن ابن زيد] . وهذا الرأى هو الذى نقله الأستاذ الإمام فى تفسير المنار حيث لم يكتف بما نقله الرازى من أقواله فى المتشابه (أنظر المنار جـ ٣ ص ١٦٥) ولا نطيل بنقله

ولعل فى هؤلاء واحداً يكون من المسلمين عند الشيخ ؟

فإذا انتقلنا إلى الخاص وهو نقل الأصوليين أحلنا الشيخ على إيراد الآمدى لهذا الرأى فى كتابه الأحكام جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة المعارف ومناقشته له .

كما نضع بين يديه عبارة الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٨ ونصها (ومثل المحكم الفرائض والوعد والوعيد والمتشابه القصص والأمثال) .

فهل لم يعرف الشيخ واحداً من هؤلاء جميعاً ؟ .

٣ — وقلت إن من المفسرين من لا يلتزم أن كل ما ورد في القصص القرآني من أحداث قد وقع بل بعضه أحداث غير واقعة فقال الشيخ :

ولا نعرف أحداً من الأصوليين ولا من المسلمين لا يقول بأن ما ورد في القرآن من القصص إنما هو أحداث وقعت وحوادث هي خلاصة الحقيقة التي وقعت في سوالف الأزمان .

وإقحام الشيخ الأصوليين هناك لا معنى له فليسمع كلام المفسرين الذين تحدثت عنهم إذ يقررون أن من القصص القرآني أحداث لم تقع .

جاء في ابن كثير حـ ١ ص ٥٩٠ بعد تفسيره لقوله تعالى ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ... الخ ما نصه (عن ابن جريج عن عطاء أن هذا مثل) وقد وضع على لفظه مثل رقم ١ وكتب على الهامش بآلة الطباعة هذه العبارة (يعني أنها ضرب مثل لا قصة واقعة) .

وجاء في الرازي حـ ٢ ص ٣٣٣ نسخة الصالة بدار الكتب وذلك بصدد الحديث عن قصة ابراهيم والطير ما نصه [المسألة الثانية . أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن وأن ابراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها على بعض غير أبي مسلم فأنه أنكر ذلك وقال : إن ابراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه والمراد بصرهن إليك الأمالة والتمرين على الأجابة أي فعود الطير الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك فأذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحداً حال حياته ثم ادعهن يأتينك تسعياً والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة] .

وجاء في المنار حـ ٣ ص ٥٢ بعد تفسيره لقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ما نصه [ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم] .

وقد كرر الأستاذ الأمام تفسير بعض القصص القرآني على هذا الأساس ويكفي أن نحيل الشيخ إلى الصفحات من ٢٨٠ — ٢٨٢ من الجزء الأول ليعرف أن الأستاذ الأمام قد فسر قصة آدم من سورة البقرة على أنها قصة تمثيلية .

على أنا نستطيع أن نضع بين يدي الشيخ هذا النص القاطع الذي لا يحتمل شكا في أن مذهب الأستاذ الأمام هو هذا .

جاء في المنار حـ ١ ص ٣٩٩ الطبعة الأولى ما نصه [ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضي أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النقل لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذكرها في سياق النفي .

قال الأستاذ الأمام ما مثاله . بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهداية ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم مايدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله (كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وكقوله (بلغ مطلع الشمس) وهذا الأسلوب مألوف فأننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والصربين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية .

ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء ولا يعتقدون ذلك وإنما يعبرون به عن المرئي] . انتهى بنصه من حديثة عن قصة هاروت وماروت

وبعد أفلا يرى الشيخ أن الأستاذ الأمام وأن الشيخ رشيد رضا يذهبان إلى أن كل ما ذكر في القصص القرآني لا يلزم أن يكون صحيحاً لأنه ذكر في القرآن بل يكون غير صحيح وإنما ذكره القرآن وهو يعتقد بعدم صحته لأن ذلك هو الأسلوب

لمادى فى التخاطب وهو الذى يجرى عليه الأدباء .

على أنى أستطيع أن أذهب مع الشيخ إلى أبعد من هذا فأقول له إن الأستاذ الإمام يفضل هذه الطريقة فى التفسير وهى طريقة التأويل على غيرها .

قال رحمه الله ج ١ ص ٢٧٣ ما نصه (أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء ؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أمكنتها ؟ ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضىء لك فى الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التى تلقفتها عنهم كى لا يوحشك بما يدهشك وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها أفلا يكون ذلك أروح لنفسك وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئاً من وراء حجاب ؟ ووقفت على سر من أسرار الكتاب ؟ فإن لم تجد فى نفسك استعداد القبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض فى إدراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به ويؤمنون بالرسول الذى صدقت برسالته وهم فى إيمانهم أعلى منك كعباً وأرضى منك ربهم نفساً .

ألا إن مؤمناً لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذى يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه فى ثقة ومن فضل ربه فى سعة) انتهى بنصه .

والآن ماذا يرى الشيخ ؟ . وماذا يرى غيره من الثائرين ؟

إنا لنمتثل معهم بقول القرآن الكريم (وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين). ومن هنا سنعرض عن القسم الثانى من مقال الشيخ وهو قسم الشتائم لمن يفقه الحق ويصل إلى الرشد ويقف على أسرار قرآننا الكريم .

محمد أحمد خلف الله
كلية الآداب — جامعة فؤاد

هجرة المختار :

يا صاحب الحوض المطهر ..

للشاعر محمد هارون الحلو

هل غير بابك للمؤملى باب ... يا خير من تسمو به الألقاب

شمت بنورك فى البرية آية ... هى فى الخلائق سنة وكتاب

كفل الإله لنا بظلك نجوة ... من كل مايخشى الورى ويهاب

الكوكب الدرى فى أفق الورى ... هذا النبى ، تبارك الوهاب

نزل الأمين عليه يحمل معجزاً ... للمرتجين به هدى وثواب

آى من الكلم الجوامع لم يزل ... للعقل منها منطق وخطاب

فيض من الألق السنى تفرقت ... منه وشائع سحرهن عجاب

ما كان شاعر أمة وقبيلة ... هذا الزكى الطاهر الأواب

بل كان ملهم حكمة وشريعة ... تسمو بها الأخلاق والآداب

بعث النبى وقومه فى غمرة ... وحديثهم فى المرسلين كذاب

ورثوا عن الأشياخ من آبائهم ... بهتان ما شبوا عليه وشابوا

اللات والعزى وآلهة الهوى ... تسمى لها الأعناق والأذناب

والرأى وهو من الفطانة والحجى ... تقضى به الأزلام والأنصاب

والقتل وهو على النفوس محرم ... لم يبق منه الثأر ما هو عاب

والخلف داء فى القلوب أصابهم ... فى مقتل فغدوا وهم أحزاب

فغدا الرسول عليهم بيقينه ... والحق سيف يمينه وقراب

فأضلهم شيطانهم إذ ردهم ... فى غيهم خاب الدعى وخابوا

ماضر لو تبعوا الهدى من ربهم ... وسعى بهم نحو الفلاح ركاب

قد كذبوه وناهضوه وإنه ... فيهم لينبوع جرى وسحاب

يدعو إلى التوحيد وهو جبلة ... دانت بها وبنورها الألباب

برهانه نور الكتاب مفصلا ... ولهم حجاج خاسر وسباب

أيقر عقل أن تقوم خليفة ... وبظلها تتسابق الأرباب

ماغير رب العرش فى ملكوته ... بين الخلائق قاهر غلاب

حملوا الأذى عنه وحل عنهم ... ما يحمل النصراء والأصحاب

يتآمرون عليه وهو مناصح ... أبيد نصح فيهم وعتاب

ضاقوا بدين الله وهو مبلج ... ضاح يشع ضياؤه الخلاب